عظة عيد الأنوار المقدَّسة

للقديس غريغوريوس النزينزي[١]

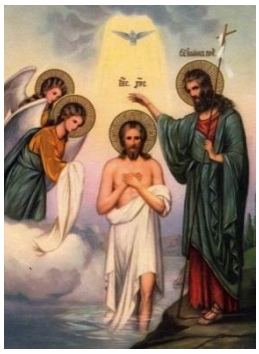

اليوم نعيِّد لنور العالم:

إنه لَسرٌّ فائقٌ يُنسَب للمجد الذي في الأعالي، لأن عيد الأنوار هذا هو عيد معمودية مسيحنا «النور الحقيقي الذي يُنير كل إنسانٍ آتيًا إلى العالم» (يو ١: ٩). إنه سرٌّ يتمم تطهيرنا ويدعم ذلك النور الذي نلناه منذ البدء من الله من فوق، هذا الذي أظلمناه نحن وشوَّشنا عليه بالخطية.

فانصتوا، إذًا، إلى صوت الله الذي يدوِّي نحوي بوضوح فائق، أنا الذي هو تلميذ وسيد في نفس الوقت لهذه الأسرار (لأنه مسئولٌ كأسقف عن إجرائها)، مثلما يريد الله أن يدوِّي هذا الصوت لكم أيضًا قائلًا: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» (يو ٨: ١٢). فاقتربوا إليه واستنيروا فلا تخزى وجوهكم (مز ٣٤: ٥) إذ يشعّ عليها النور الحقيقي. إنه موسم الولادة الجديدة لكي نولد مرةً ثانيةً، فهو وقت تجديدنا وإعادة خلقتنا لكي نتقبَّل مرةً أخرى آدم الأول (قبل السقوط). ليتنا لا نبقى كما نحن بل نصير إلى ما كنا عليه. إن «النُّورَ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ» (يو ١: ٥) في هذه الحياة وفي الجسد، والظلمة تلاحقه ولكنها

---

(١) أُلقيت هذه العظة في القسطنطينية في عيد الظهور الإلهي عام ٣٨١م. وأُتبعت في اليوم التالي بعظة أخرى عن سر المعمودية. ففي العصور الأولى كان هذا العيد يشمل الاحتفال بعيدي الميلاد وعماد الرب يسوع قبل أن ينفصل العيدان عن بعضهما. وكان حينئذٍ يُعتبر فرصة هامة لمنح سر المعمودية. وكان يسمَّى "عيد الأنوار المقدَّسة" الذي اشتُقَّ من تسمية المعمودية بـ"الاستنارة". وهذا الاسم الذي جاء من الشعور بالنعمة الروحانية التي ينالها المعمَّدون، وله علاقة أيضًا بالمصابيح والشموع المضاءة التي كان يحملها المعمَّدون الجدد أو أشابينهم ولاسيما عندما كانوا يزفونهم بالألحان بعد طقوس التعميد. ويبدو أن احتفالات هذا العيد كانت تستغرق يومين يُخصّص اليوم الثاني منهما لإجراء سر المعمودية.

مقتبسة من: N. & P.N. F., 2nd Series,vol. VII, p. 351

لا تدركه، وأقصد بذلك القوة المعادية التي تهاجم آدم المنظور بخزيها ولكنها تواجه الله وتُغلَب. فإذ نُبعد عنَّا الظلمة ونحن مقتربون من النور، فحينئذٍ نصير نورًا كاملًا نحن أبناء النور الكامل. انظروا نعمة هذا اليوم، انظروا قوة هذا السر! ألم تُرفعوا عن الأرض؟ أليس من الواضح أنكم قد رُفعتم إلى العلا إذ سما بكم صوتنا وتأملنا هذا؟ بل إنكم ستكونون أكثر سموًا عندما يجعل الكلمة الإلهي كلماتي هذه تثمر!

لقد سبق وحرمنا الشياطين من شجرة الحياة بإغراء شجرة معرفة الخير والشر حيث جعلونا أضعف منهم حتى لا يمكننا الوصول إلى ما كانوا هم عليه قبل سقوطهم. ولكن طالما أنه قد أُعطيت لنا نعمة لنهرب من الميول المنحرفة نلتصق بالحق ونخدم الإله الحقيقي الحي نسمو فوق الخليقة، عابرين على كل ما هو خاضع للزمن والحركة الأولى؛ فلننظر إلى الله ونتأمل فيه وفي الأمور السماوية بطريقة تتصل بهذه النعمة الممنوحة لنا.

حكمة الله المخبّأة في سرٍّ:

دعونا نبدأ حديثنا انطلاقًا من أنسب نقطة لذلك وهي: «بدء الحكمة هو اقتناء الحكمة» (أم ٤: ٧ حسب النص)، وبدء الحكمة أو رأسها يقول عنه المرتل: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الرَّبِّ» (مز ١١١: ١٠). فعلينا ألاّ نبدأ في التأمل بدون مخافة الله، لأن التأمل غير المضبوط ربما يدفعنا إلى هوّة، فلنكن راسخين أنقياء وبالمخافة نسمو بأنفسنا لكي نُرفَع إلى الأعالي، لأنه حيث توجد المخافة يوجد حفظ الوصايا، وحيث يوجد حفظ الوصايا توجد تنقية الجسد الذي هو الغمامة التي تغطي النفس فلا ترى شعاع النور الإلهي، وحيث توجد تنقية توجد استنارة، والاستنارة هي إشباع رغبة الذين يتطلَّعون إلى العظائم أو إلى أعظم الكل الذي يفوق كل عظمة.

هل صارت لدينا خبرة بني إسرائيل الذين لم يحتملوا المجد على وجه موسى النبي وطلبوا برقعًا (٢كو ٣: ٧و١٣)؟ أو نشعر بما قاله منوح لامرأته: «نَمُوتُ مَوْتًا لأَنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا اللهَ» (قض ١٣: ٢٢)؟ رغم أنه رأى حسب تصوره ملاك الله؟ أو مثل الرسول بطرس الذي أراد أن يُخرج الرب يسوع من قاربه لأنه شعر مثلنا أنه غير جدير بزيارة الرب له (لو ٥: ٨)؟ إنني أتكلم عن بطرس الذي مشى على الأمواج (مت ١٤: ٢٩)! أم أننا مثل

بولس الرسول الذي أُصيب بالعمى الذي عبّر عن حالته قبل أن يتطهر من إثم اضطهاده للرب (أع ٩: ٣ –٨)، وذلك بعد ما تحدث مع من كان يضطهده، أو بالأحرى مع وهج النور الأعظم القصير الأمد؟ أم مثل قائد المائة الذي وهو يطلب الشفاء بمخافته الممدوحة، استكثر على نفسه أن يُدخِل الطبيب الشافي إلى بيته (مت ٨: ٨)؟ فطالما أننا لم نتنقَّ بعد مثله، هذا الذي لا زال بإيمانه واتضاعه يوصي الكثيرين الذين يعيشون في الخطية ويخدمون في جيش قيصر الحاكم الدنيوي والمسيطر على الذين يُجرفون إلى أسفل، فليقل كلٌّ منا معه: «يَا سَيِّدُ، لَسْتُ مُسْتَحِقًّا أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي» (مت ٨: ٨). ولكن عندما ينظر كل منا إلى يسوع ولو كان قصير القامة مثل زكا، ويتسلق إلى قمة الجميزة بإماتته لأعضائه التي على الأرض (لو ١٩: ٣؛ كو ٣: ٥)، وإذ ينهض فوق جسد مذلتنا؛ فحينئذٍ سيقبل إليه الكلمة الإلهي ويُقال له: «الْيَوْمَ حَصَلَ خَلاَصٌ لِهذَا الْبَيْتِ» (لو ١٩: ٩)، وحينئذٍ فليتمسك بالخلاص ويعطي ثمرةً أكمل إذ يوزع بالصواب ما جمعه بالخطية عندما كان عشارًا.

عندما نحرس أنفسنا بكل اعتناء ونعزم على أن نصعد في قلوبنا (مز٨٤: ٥) ونحرث أرضنا البور (إر٤: ٣) ونزرع للبر (أم١١: ١٨) كما يأمرنا كلٌّ من داود وإرميا وسليمان، فلننير أنفسنا بنور المعرفة ثم نتكلم عن حكمة الله المخبّأة في سرٍّ (١كو٢: ٧)، وبذلك ننير آخرين أيضًا. دعونا نتشبث بالكلمة الإلهي ونُظهره للآخرين.

والآن، بعد أن تطهرنا فلنتكلم قليلًا عن هذا العيد ونرافق النفوس التقية المبتهجة في الاحتفال به. والموضوع الرئيسي في العيد هو ذكر الله، فلندعُه بأذهاننا، لأن صوت الذين يحفظون العيد الأبدي هناك (في السماء) حيث مسكن جميع المتنعمين ما هو إلَّا التسابيح والتماجيد لله التي يرتلها جميع الذين حُسبوا أهلًا لتلك المدينة السماوية. إنني إذ أتكلم عن الله أشعر برعدةٍ في لساني وذهني وفكري، وذلك لكي أشرككم معي في هذا الشعور المبارك. وعندما أتكلم عن الله فلابدَّ أن تستنيروا بالله الواحد بأقانيمه الثلاثة الذين هم واحد في الجوهر ومتحدون بلا انقسام في اللاهوت، فوحدتهم ليس فيها اختلاط وتعدُّدهم ليس فيه انفصال!

سرّ اتضاع مَنْ تعمَّد لأجلنا:

احتفلنا بعيد ميلاد الرب نحن وجميع الذين على الأرض وفي السماء: فمع النجم ركضنا ومع المجوس سجدنا ومع الرعاة استرنا ومع الملائكة مجَّدنا الرب. مع سمعان حملناه على ذراعينا ومع حنَّة العجوز العفيفة قدمنا اعترافنا الإيجابي. فشكرًا لمن جاء إلى خاصته في هيئة غريب لأنه مجَّد الغريب[٢].

والآن نأتي إلى فعل آخر وسرٍّ آخر للمسيح. إنني لا أستطيع أن أقمع بهجتي، فأنا مذهولٌ في الله! إنني تقريبًا مثل يوحنا المعمدان أُذيع أخبارًا سارة، وإن كنتُ لستُ سابقًا، أي ممهِّدًا الطريق للرب، إلَّا أنني من البرية[٣]. ها هو المسيح قد أشرق فلنشعّ نحن معه. ها هو المسيح قد تعمّد، فلنهبط معه لكيما نصعد معه. يسوع تعمّد، ولكننا فلننتبه ولنبحث فيمن تعمَّد؟ وبواسطة من؟ وفي أي وقت؟ إنه الكلي الطهارة، وقد تعمّد من يوحنا، والوقت كان عند بداية حياته العجائبية. وما نتعلمه من ذلك هو:

أولًا: أن نطهر أنفسنا لنكون مثله، وهذا يحتاج إليه الذين يندفعون إلى المعمودية دون أن يُعدوا ذواتهم ويجعلوا نعمة المعمودية مصحوبةً بميولهم القلبية إلى الصلاح. فطالما أن هذه النعمة تغفر لنا الماضي، فهي جديرة بالتوقير حتى لا نعود إلى قيئنا مرَّةً أخرى.

ثانيًا: أن نتضع بأذهاننا، وهذا موجَّه إلى الذين يتمردون على وكلاء سرائر الله إذا كانوا أعلى منها بالمقاييس الدنيوية.

ثالثًا: أن نعظ عندما نصير بالغين روحيًّا وفي قوامنا الجسدي، وهذه النصيحة موجَّهة للذين يثقون بأنفسهم وهم صغار السن ويظنون أنهم في أي وقت يصلحون للتعليم أو الإشراف.

ولكن يوحنا عمَّد ويسوع جاء إليه، ربما لكي يقدّس الرب المعمدان نفسه، ولكنه بالتأكيد لكي يدفن آدم العتيق بجملته في الماء، ولكي يقدِّس نهر الأردن. فكما أنه هو روح (قدس) وجسد فهو يخصصنا لله بواسطة الروح (القدس) والماء (يو ٣: ٥). يوحنا

---

(٢) أي الطبيعة البشرية التي انفصلت وتغرَّبت عن الله بالخطية.
(٣) لأنه عاش حياة رهبانية لفترة ما.

يُحجم عن تعميد الرب والرب يحاججه، فالمعمدان يقول للكلمة الإلهي، أي أن الصديق يقول للعريس: «أنا محتاج أن أعتمد منك» (مت ٣: ١٤). إن الذي هو "أعظم المولودين من النساء" (مت ١١: ١١) يقول ذلك لذاك الذي هو «بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ» (كو ١: ٥). الذي ارتكض في بطن أُمّه (لو ١: ٤١) يقول ذلك لمن سُجد له وهو في الرحم. الذي كان وسيكون في المجيء الثاني سابقًا للمسيح يقول ذلك لمن استُعلن وسيُستعلن مرةً أخرى للبشر. ويمكننا أن نضيف إلى القول: «أنا محتاج أن أعتمد منك» كلمة أخرى هي "ولأجلك"، لأن يوحنا علم أنه سيتعمّد بالاستشهاد، أو مثل بطرس الذي أراد أن يغتسل ويطهر ليس في قدميه وحدهما (يو ١٣: ٩).

ثم أضاف يوحنا: «وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ»؟ وهذا القول أيضًا كان نبويًا، لأنه علم أنه بعد أن يقتله هيرودس فإن بيلاطس سيقتل سيده، وهكذا فبعد أن كان سابقًا لسيده سيصير تابعًا له باستشهاده من أجله. أما الرب فقال: «اسمح الآن»، وذلك لأن هذا كان وقت تجسده، لأنه علم أنه بعد قليل ينبغي أن يعمَّد المعمدان (بمعمودية الدم)!

المعاني الروحية لنبوات المعمِّد عن المعمَّد:

يشرح **ق. غريغوريوس** نبوات المعمدان عن سيده القائلة: «وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ... الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ، وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ، وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ» (مت ٣: ١٠و١٢)، فيقول: [ما هو الرفش (= المذراة)؟ هو التطهير. وما هي النار؟ هي التهام التبن وهي حرارة روح الله. وما هي الفأس؟ هي استئصال النفس غير القابلة للشفاء حتى بعد أن يوضع لها الزبل: « يَا سَيِّدُ، اتْرُكْهَا هذِهِ السَّنَةَ أَيْضًا، حَتَّى أَنْقُبَ حَوْلَهَا وَأَضَعَ زِبْلًا، فَإِنْ صَنَعتْ ثَمَرًا، وَإِلاَّ فَفِيمَا بَعْدُ تَقْطَعُهَا» (لو ١٣: ٨و٩). وما هي سيور حذائه التي لا تستحق يا يوحنا الذي تعمّد الرب يسوع أن تحلَّها (يو ١: ٢٧)؟ يا من أنت من البرية وليس لك طعام، يا إيليا الجديد (مت ١١: ١٤)، يا أفضل من نبي (لو ٧: ٢٦) بقدر ما رأيتَ ذاك الذي تنبّأت عنه، أيها الوسيط بين العهدين ... ما هذه السيور؟ لعلها هي رسالة مجيء الرب وتجسده التي لا ينبغي أن يُحَلّ أقل عنصر فيها، ليس فقط بواسطتنا نحن الجسدانيين والأطفال في المسيح، بل ولا حتى بواسطة الذين هم مثل المعمدان في الروح.